محمد الغزالي

الإسلام والاستبداد السياسي

٢٠

طبعة جديدة محققة

نهضة مصر
للطباعة والنشر والتوزيع

اسم الكتاب: الإسلام والاستبداد السياسى
اسم المؤلف: الشيخ محمد الغزالى
تاريخ النشر: طبعة أولى يونيو ١٩٩٧.

رقم الإيداع: ٣٧٦٥ / ١٩٩٧
الترقيم الدولى: I . S . B . N 977 - 14 - 0590 -X
تصميم الغلاف: م / محمد العتر
مراجعة وتحقيق: محمد خالد القعيد

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
المركز الرئيسى: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة
مدينة السادس من أكتوبر
ت: ٣٣٠٢٨٧ - ٠١١/٣٣٠٢٨٩
فاكس: ٠١١/٣٣٠٢٩٦
مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت: ٥٩٠٩٨٢٧ - ٠٢/٥٩٠٨٨٩٥
فاكس: ٠٢/٥٩٠٣٣٩٥
ص.ب: ٩٦ الفجالة
ادارة النشر: ٢١ ش أحمد عرابى - المهندسين - القاهرة
ت: ٣٤٦٦٤٣٤ - ٠٢/٣٤٧٢٨٦٤
فاكس: ٠٢/٣٤٦٢٥٧٦
ص.ب: ٢٠ امبابة

دراســـة

هذا الكتاب من أخطر الكتب التى تناولت الاستبداد السياسى دراسة واقعية معاصرة جريئة امتزجت بالأسانيد الشرعية والمرويات التاريخية . .

وليست قوة الكتاب فيما احتوى من معلومات فهذه ليست غريبة أو بعيدة عن مقدرة الشيخ الغزالى وإنما مكمن قوته فى جرأته البالغة فى توجيه صفعة شديدة للطغيان فى وقت كان السجن والتنكيل مصير رائدى الأقلام الحرة والضمائر الصاحية . . وكانت الرقابة على الصحف والكتب توءد بحياة الأحرار والشرفاء وتقصف بأقلامهم .

وقد يصيبنا العجز فى التأريخ لتلك الفترة التى ظهر فيها الكتاب لأننا لم نعاصرها ، ولكن جدير بنا أن نقرأ ما كتبه الشيخ يوسف القرضاوى عن تلك المرحلة الصعبة وما عاصرها من أحداث جسام .

« . . جاءت محنة ديسمبر ١٩٤٨ م ، حين صدر قرار حل جماعة الإخوان ، ومصادرة ممتلكاتها ، والتنكيل بأعضائها ، واعتقال عدد كبير منهم ، وانتهى الأمر باغتيال الحكومة جهرة لمؤسس الجماعة ومرشدها الأول الإمام حسن البنا .

وكان مما قدر الله لى أن أكون من المعتقلين فى تلك المحنة التى أحالها الله منحة ، وأنا طالب فى السنة الخامسة الثانوية بمعهد طنطا الدينى ، وقد حجزت أكثر من شهر فى (سجن) القسم الأول للشرطة فى مدينة طنطا ، مع مجموعة من الإخوة الزملاء ، ثم رحلنا إلى معتقل (الهايكستب) فترة قصيرة ، ومنه إلى معتقل (الطور) فى سيناء ، حيث ركبنا الباخرة (عايدة) من السويس مجتازين خليج السويس إلى مقامنا الجديد فى الطور .

ولا زلت أذكر تلك اللحظة التى هاج فيها ركاب الباخرة لسبب ما ، وحدث شىء من الهرج والمرج ، وكاد يفلت الزمام ، فإذا شاب قصير القامة ، مشرق الوجه ، يلبس ثوبا أبيض ، حاسر الرأس ، يتوقد ذكاء وحيوية ، يخاطب الركاب فى حزم : أيها الإخوة ، يجب أن نضبط أنفسنا ، حتى نصل إلى مستقرنا الجديد ، فى أرض انطلقت منها شرارة الوحى المقدس ، لتحرير أمة مستعبدة ، من طغيان المتألهين فى الأرض . . . . .

وقد لاحظت أنه حين بدأ كلامه ، صمت الجميع كأن على رءوسهم الطير ، ولم يكد يتم كلمته الموجزة ، حتى ساد الهدوء ، وسار المركب فى أمان ، وكأن شيئا لم يكن .

قلت لبعض الإخوة من أهل القاهرة : من هذا المتكلم ؟ قالوا : ألا تعرفه ؟ إنه الشيخ محمد الغزالى ! .

كم كانت فرحتى غامرة بتلك اللحظة السعيدة . لقد لقيت الرجل الذى أحببته عن بعد ، فها هو اليوم منى غير بعيد .

وشاء الله أن نوزع على أقسام معتقل الطور ، فأكون من القسم الذى فيه الغزالى ، وكان يسمى (الحذا) . وكان حذانا رقم (١) . فها أنذا ألتقى به صباح مساء .

كان الشيخ الغزالى إمامنا فى الصلوات ، وخطيبنا فى الجمعة ، ومدرسنا فى الحلقات ، مع أخيه ورفيقه العالم الفقيه الشيخ سيد سابق ، كان يصلى بنا الصلوات الخمس ، ويقنت بنا قنوت النوازل ، وكان من دعائه فى هذا القنوت : «اللهم أفكك بقوتك أسرنا ، وأجبر برحمتك كسرنا ، وتول بعنايتك أمرنا ، اللهم استر عوراتنا ، وآمن روعاتنا ، اللهم عليك بالظالمين» ! .

وكان الشيخ يلقى علينا محاضرات فى موقف الإسلام من استبداد الحكام ، كانت نواة الكتاب الذى أصدره بعد الخروج من المعتقل ، وهو : (الإسلام والاستبداد السياسى) .

ومما لا ينسى : أن الإخوان كانوا قد اختاروا مسئولا عنهم ، كما هى سُنَّة الإسلام : « إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم » ، وكان هو أستاذنا الداعية الكبير البهى الخولى ، صاحب (تذكرة الدعاة) ، وغيرها من الكتب الأصيلة ـ رحمه الله ـ وجزاه عن الدعوة خيراً .

ولكن الأستاذ البهى قد استدعى إلى القاهرة ، حيث وجه إليه اتهام فى قضية تتعلق بالنظام الخاص .

فاجتمعت كلمة الإخوان على اختيار الشيخ الغزالى قائدا لهم داخل المعتقل ، برغم أن فى المعتقلين من هو أكبر منه سنّا .

وفى تلك الآونة ، كان العسكريون الذين يحكمون المعتقل يأكلون حق المعتقلين ، من الأطعمة الجافة و (المعلّبات) التى تصرف لهم وباسمهم من الدولة .

وكان هولاء يحسبون أن المعتقلين أسرى تحت أيديهم ولا يملكون أن يقولوا : لم ؟ بلْه أن يقولوا : لا .

ولكن الشيخ الغزالى خطب الجمعة ، فألهب العواطف ، وفجر بركان الثورة على هذا الظلم البيّن ، وهذه السرقة العلنية ، متحديا أولئك الطغاة المتمردين على عدل الله ، معلنا الحرب على ذلك الثنائى الدنس ، المتمثل فى الفرعونية الحاكمة بأمرها فى بلاد الله ، والقارونية الكانزة لمال الله عن عباد الله .

وما إن قُضِيت الصلاة ، حتى قاد الشيخ مظاهرة تندد بالظلم وتعلن العصيان وتملأ هتافاتها الفضاء : تسقط اللصوصية المنظمة ! تسقط سياسة التجويع ! ! .

وكانت مفاجأة للعسكر حكام المعتقل ، فلم يملكوا إلا أن يرضخوا لمطالب المعتقلين فى تسليمهم المقررات الجافة من الأطعمة ليتولوا هم طبخها وتوزيعها بمعرفتهم .

وظللنا مدة لم تطل بمعتقل الطور ، ثم فوجئنا بأن نودى علينا نحن طلاب المرحلة الثانوية ، لينقلونا إلى معتقل (هايكستب) ، قريبا من القاهرة ، وقد قيل : إن ذلك تمهيد للإفراج عنا .

وما كان هذا بالشىء الذى سررنا به أو هششنا له ، فقد كنا لا نريد فراق إخواننا بالطور ، وعلى رأسهم الشيخ الغزالى . .

. . وفى أواخر شهر رمضان ، أذن الله بسقوط وزارة الطاغية الأثيم إبراهيم عبد الهادى ، وبدأت الإفراجات ، وكنت فى أوائل من أفرج عنهم ، ولم يشب فرحة الإفراج عندى إلا البعد عن الشيخ الغزالى . . » . .

وبعد الإفراج عنهم تقابل الدكتور القرضاوى مع الشيخ الغزالى عن قرب ، فقال :

« . . وقد وجدنا الشيخ الذى يشتد ويحتد فى نزاله الفكرى ، فيهدر كالموج ، ويقصف كالرعد ، ويزأر كالليث ، حتى إنك لتحسبه فى بعض ما يكتب مقاتلا فى معركة ، لا مجادلا فى قضية ، وتحسب القلم الذى فى يده ، السيف أو الرمح فى يد ابن الوليد ! وجدناه - عن كثب - إنسانا رقيق القلب ، قريب الدمعة ، نقى السريرة ، صافى الروح ، حلو المعشر ، رضى الخلق ، باسم الثغر ، موطأ الأكناف ، عذب الحديث ، سريع النكتة ، بسيطا متواضعا ، هينا لينا ، بعيدا عن

التكلف والتعقيد والتظاهر والادعاء ، تسبق العبرة إلى عينيه إذا سمع أو رأى موقفا إنسانيا ، ويهتز خشوعا وتأثرا إذا ذكر الله والدار الآخرة ، ولا يأنف أن يتعلم حتى من تلاميذه ، يعترف لكل ذى موهبة بموهبته ، لا يحسد ولا يحقد ، يكره الظلم والتسلط على عباد الله ، يقول بصراحة : لا أحب أن أتسلط على أحد ، ولا أن يتسلط علىّ أحد .

كان الغزالى بعد خروجنا من المعتقل أواخر سنة ١٩٤٩ م ، هو اللسان الأول الناطق باسم الدعوة إلى الإسلام ، والمحامى الأول عن حرماته ومفاهيمه . . .

وهو يقف بالمرصاد لكل متطاول على قيم الإسلام وأحكامه ، ليرسل عليه شواظا من نار ، مسلحا بقلم لا يصدأ ، ولا يفل ، ولا يستكين » . أ هـ .

* * *

نموذج من إحدى الرحلات القاسية فى حياة الشيخ رواها الدكتور يوسف القرضاوى . .

يطاف إليها ثمة أمر آخر وهو مظالم الحكم وقسوته على الطبقات الفقيرة وسطوته على الكادحين من أبناء الشعب العظيم . . وضياع الحقوق ومسرحية البرلمان وصورية مجالس الشيوخ . . إلخ

والشيخ لم يقصد نظاما بعينه ، بل خلد كتابه بما احتوى من أراء ، ويعد كتاب « الإسلام والاستبداد السياسى » أول كتاب يحدث ضجيجا وزلزالا فى عرش الطغيان- إذا استثنينا كتاب طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى لاختلاف الظروف والدوافع – ومع تقديرنا لمؤلف طبائع الاستبداد إلا أن الشيخ صرح وواجه وأعلن بصراحة أنه يعادى الاستبداد بشتى صوره وألوانه .

* * *

سئل يوما عن كتابه هذا فقال : « أشهر كتبى عندما هاجمت فيها الطغيان وفساد الحكم وأسميته « الإسلام والاستبداد السياسى » وكان ذلك فى أواخر الأربعينيات وكان هذا اليوم من أهم أيام حياتى واعتبره نقطة انطلاق لى . . . بمجرد أن نزل الكتاب إلى الأسواق فوجئت بالحكومة كلها تهتز وتصدر قرارا بمصادرة الكتاب . وأحسست أن القصر الملكى اهتز بشدة من هذا الكتاب وقبض

علىّ وقدمت للمحاكمة بتهمة مهاجمة الحكومة .. وخرجت من هذه القضية بدون أن يثبت على شيء » .

وعندما سئل عن قصده من الكتاب قال : « ليس الكتاب لفئة دون فئة أو نظام دون آخر إنه لكل العصور وكل الأنظمة .. لقد طالبنى رجال المباحث فى العصر الجمهورى بتغيرات معينة وتحديدات خاصة فرفضت ونالنى ما نالنى .. » .

إذاً كان النظام المستبد يؤلمه ويؤرقه ويرى مع ضياع الأمة الإسلامية لذلك رد يوما على أحد الصحافيين[1] قائلا : « الشورى ركيزة الحكم الصالح .. والمسلمون أحوج أهل الأرض إلى أن يعيشوا فى ظلها .. ومن الضرورى وضع القواعد التى تكفلها وتحميها من طغيان النظام الفردى .. » .

وكان يكره مدح الحكام ووصفهم بالإلهام والسداد والشعوب دونهم فكرا وتصنيفا .. !

كتب الدكتور يوسف القرضاوى تحت عنوان « الحرية ومقاومة الاستبداد السياسى »[2] ، « الشيخ الغزالى من عشاق الحرية ودعاتها ، وهى من العناصر الأساسية فى برنامجه الإصلاحى ، وهو عدو الاستبداد أيا كانت صورته ولا يقبله بحال ، ولو تسربل باسم الدين ، بل يرى أن الاستبداد باسم الدين أشد خطر من غيره .

من أجل ذلك قسا على بعض مراحل التاريخ الإسلامى ، حين رأى الشورى معطلة والخلافة تنتقل بحكم الوراثة إلى سفيه أو صبى لم يبلغ الحلم .

وحين قرأ فى كتاب « العواصم من القواصم » للإمام أبى بكر بن العربى أن البيعة تنعقد باثنين أو بواحد ، لم يطق صبرا على هذا الكلام الذى اعتبره فارغا لا وزن له ، لا دليل عليه .

وهو ما جعل العلامة محب الدين الخطيب يعقب عليه فى مجلة « الإخوان المسلمين » تحت عنوان : « هل الحكم الشرعى كلام فارغ ؟ » .

ورد عليه الشيخ الغزالى بمقال : « هل هو حكم شرعى ؟ » والمقالان يمثلان نموذجا يحتذى فى حوار العلماء ، الذى يقدر بعضهم بعضا ، وإن كان الخطيب

(١) مجلة شباب الجامعة عدد فبراير ١٩٩٣ ص ٤ .

(٢) الشيخ الغزالى كما عرفته ـ رحلة نصف قرن ـ دار الوفاء ـ المنصورة الطبعة الأولى ١٩٩٥ ص ٢٠٢ .

فى حوار العلماء ، الذى يقدر بعضهم بعضا ، وإن كان الخطيب يمثل هدوء الشيوخ ، والغزالى يمثل ثورة الشباب »[1] أ هـ .

والشيخ الغزالى لم يفرد للاستبداد السياسى هذا الكتاب فحسب ، بل تناوله فى كثير من كتبه وخصص له فصولا وأبوابا فى كتبه « هموم داعية » و « فى موكب الدعوة » و« الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا » و « علل وأدوية » ومقالات عديدة من كتابه الجامع « الحق المر » وكتابه القيم « نحو تفسير موضوعى لسور القرآن الكريم » .

وقد تناول الشيخ كل ما يتعلق بأنظمة الحكم والديمقراطية والفرق بينها وبين الشورى والحياة البرلمانية والانتخابات وكل ما يتعلق بأسباب الأنظمة المستبدة .

والشيخ فى قضية سلوك المستبدين لا يراعى إلا الله ولا يخشى نظاماً ولا يمالق نظاماً آخر . . وكثير ما جر عليه غضب المسئولين فى كثير من الأحيان ، لكنه لم يرض إلا الله وحده . وهذا هو الشيخ الغزالى .

والشيخ الغزالى كان حريصا على تسجيل معاصى السياسيين ويتناولها بالتوبيخ فى أى بقعة من بقاع الأرض . واستشاط غضبا عندما سمع بعض العلماء يقول : إن الشورى مندوبة وليست واجبة ، وهى مُعلمة لا ملزِمة ! فكان يشعر أن هؤلاء أشد خطرا على الإسلام من المتطرفين . وأخذ علَى عاتقه تسجيل جل المخازى التى تحدث فى العالم الإسلامى من أولى الأمر .

يذكر الشيخ الغزالى يوما حينما كان يعمل فى المساجد بوزارة الأوقاف المصرية فى السيتنيات : أن أحد خدام المساجد جاءه يصرخ : أدرك يا فضيلة الشيخ إن الزبانية دفنوا بعض الناس وأمرونى بفتح المقابر ليلا . . وحينما سعى الشيخ لبيان الأمر تبين أن بعض المعتقلين قد ماتوا فى سجنهم من شدة التعذيب وتعمد النظام وقتئذ تعتم الأمر وإنكاره ولم يكن ذلك غريبا فقد دأب زبانية السجون على زهق أرواح الأبرياء . .

* * *

ويعد كتاب الإسلام والاستبداد السياسى بداية الصدام مع النظام ، كتبه فور الخروج من المعتقل ١٩٤٩ وأخذ على عاتقه الجهاد مع هؤلاء قدر المستطاع .

---

(١) للوقوف على تلك المراسلات انظر كتاب « فى موكب الدعوة للشيخ محمد الغزالى » . وللإفادة فإن الشيخ كان على علاقة حسنة بالشيخ الخطيب واقتبس منه كثيرا من أرائه الجيدة وأوردها كتابه القيم «مع الله» . إن الخلاف لايفسد للود قضية ولا يجب أن يعمى عن الانصاف . « المحقق » .

وفى العهد المعاصر أكمل تلك الدراسة بكتاب « نظرة على واقعنا الإسلامى مع مطلع القرن الخامس عشر الهجرى »[1] والمسمى بأزمة الشورى .

ويعد هذا الكتاب رؤية علمية دقيقة لمفهوم الشورى والزاميتها وضرورتها لوقف جماح المستبدين .

ولا ينسى الشيخ أن ينصف حكومات اتهمت بالاستبداد فيصحح الأوضاع ويبرئ المظلوم . . وكان حريصا على تصحيح الخطأ فحينما يجد نفسه قد حكم على غير صواب يرد نفسه ويسعى لإظهار الحقائق جلية وهو سلوك قل أن يوجد عند أحد من الناس .

قال الشيخ الغزالى :

« . . وكان الانتقال إلى المملكة العربية السعودية مباغتة لى ، وكنت قد نقلت فى أول كتاب ألفّتُه كلاماً عن الملك عبد العزيز يصف صرامته فى تأديب البدو والقبائل التى مردت على إيذاء الحجيج . . ويظهر أن الكاتب الذى نقلتُ عنه جار فى حكمه واشتط فى اتهامه ، وأنا على كل حال مسئول عن الكلام الذى نقلته وإن وُصِفَ خطأ بأنى قلته . . .

وقد سافرتُ إلى مكة وبدأتُ العمل فى الجامعة وبدأتُ كذلك أدرس تاريخ الملك عبد العزيز أدرسه سراً ، وأتعرف على معالمه وحدى . . .

وكان أول ما استوقفتنى كتيب فى الأدعية المأثورة التى كان الملك يتلوها تقرباً إلى الله وتطلعاً إلى فضله . . ! ! قلتُ : مَلِكٌ عابد ؟ ؟ هذا غريب ! !

وبدأتُ أجمع المعلومات ، وأنا بعيد عن أى حاكم فى المملكة فعلمتُ ما لم أكن أعلم .

عرفتُ أن الرجل كان صوّاماً قوّاماً مقبلاً على ربه ، راغباً فى نُصرة دينه ، يتحرى الحق ويسأل عنه أهل الذكر . . ويريد أن يُقيم دولة للإسلام تجمع ما تفرّق من أمره ، وتحميه من الخرافات والأباطيل . . .

وعرفتُ أنه كان متواضعاً للناس ، يُبعثر فيهم ما يجيئه من مال ، وكان المال يومئذ قليلاً ، لما يستكشف النفط بعد وتغزر موارده .

وتأملتُ فى مؤسسى الأسر المالكة التى ظهرت خلال القرنين الأخيرين فوجدتُ محمد على باشا أقام مُلْكًا عريضاً بمساعدة فرنسا ، وأنه حيث دخل بلداً كان ينقل القوانين الوضعية الفرنسية ويستبدلها بالقوانين الإسلامية .

(١) طبعة دار ثابت ١٩٨٣ .

أما عبد العزيز فكان الهدف الأول والنداء الأول له إقامة حكم إسلامى ، تُطَبَق فيه تعاليم الكتاب والسُنَّة .

وقد استطاع أن يجمع تحت هذه الراية أقطاراً فيحاء من جنوبى سوريا شمالاً إلى شمال اليمن جنوباً واصلة بين البحر الأحمر والخليج الفارسى شرقاً وغرباً ، ولم تتوحَّد البلاد على هذا النحو إلا على عصر ازدهار الإسلام .

وقد هاجمه بعض المتدينين وطعنوا فيه لأنهم رغبوا إليه أن يُعلن الحرب على إنجلترا ويأذن لهم بفتح العراق ، ولكن الرجل أبى أن يتعرض لمغامرة هى فى عقباها مقامرة خاسرة .

وعند التأمل نجد الحق معه ولا ريب أنه كان سياسياً ماهراً بعيد النظر .

إننى أكتب هذه الكلمات إنصافاً للحقيقة العلمية ، لا رغبة ولا رهبة ، أكتبها بعد خمس سنين قضيتها فى السعودية كأى أستاذ يشتغل بالتعليم والتربية[1] ، ما قال لى مسئول : لماذا كتبت عن كذا . . ؟ أو لعلك تستدرك ما ذكرتَ قديماً عنا ، لا . .

إنه العدل مع رجل عظيم أفضى إلى ربه ولا نُزكِّى على الله أحداً . . »[2] . أ هـ .

* * *

وبقيت كلمة من باب الأمانة العلمية .

فقد لزم الأمر والتنويه أن الشيخ الغزالى رحمه الله قد أوصى بحزف كلمات لاتكوِّن جملا . . يراها ـ رحمه الله ـ بعيدة عن الصواب .

وثمة أمر أخير : أن هذا الكتاب يعد أحد الوثائق الهامة وورقة من مذكرات الإمام الراحل وتأريخا دقيقا لمرحلة مستبدة ماتت فيها الحرية مرارا . وصيحة مدوية يخشاها المستبدون دوما .

« **المحقق** »

* * *

(١) كان ذلك بعد أن عاد الشيخ الغزالى إلى مصر وانقطعت أسباب عمله بالسعودية . وعن تلك الوقائع انظر المرجع السابق وكتابه الشهير الإسلام والأوضاع الاقتصادية .

(٢) محمد الغزالى ـ الدعوة الإسلامية ـ تستقبل قرنها الخامس عشر . . ص ٢٣٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

كتبت هذه الصحائف من بضع عشرة سنة ، وكان دويها بعيد المدى فى إقلاق الظلمة ، وكانت استجابة القدر لها أسرع مما يتصور الكثيرون .

فدكت عروش طالما عنت لها من دون الله الوجوه ، وزالت مآس كاد الإياس من زوالها يستولى على الأفئدة .

لكن آفاق العالم الإسلامى لما يعمها الصفاء المنشود .

فبعد مضى هذه السنين الحافلة نرنو بأبصارنا إلى أقطار شتى ، فإذا هى لاتزال ترسف فى قيودها .

بل إن أعراس الحرية كثيرا ما تحولت إلى مآتم يحفها السواد الكئيب .

وتلهث فيها الجماهير الشقية ، وتستباح فيها الدماء والأعراض . . !!

والمسلمون أحوج أهل الأرض إلى الرواد الذين يمهدون لهم سبل الكرامة ويدفعون عنهم مكايد العسف .

ونحن لن نتوانى عن أداء واجبنا الذى يسرنا الله له ، وأعاننا عليه .

وسنظل نساند قضايا الحق ، وننناصر أهله حتى نلقى الحق ـ جل شأنه ـ صادقين أوفياء .

محمد الغزالى

حصاد مرير

حصاد مرير

هذه خلاصة بحث[1] ألقيته دروسا على فريق من الذين اعتقلوا معى فى منفى الطور منذ سنوات ، وقد أحرقت أصوله الأولى فى الهجمات التى كان يشنها علينا قائد المعسكر للإرهاب والإذلال ، وحسبت أن الأحوال التى أوحت بخوض هذا البحث قد انتهت بالإفراج عنا ، وأنى إذا عدت إلى تحريره فسيكون بحثا علميا مجردا من الملابسات الأسيفة التى بدأ فيها .

وكنت فى هذا الزعم واهما ! كانت ذكريات المنفى أعمق من أن تمحى وعودة الغيوم إلى آفاقنا أسرع مما نتصور ! .

وهل انجلت يوما حتى يقال : إنها عادت ؟ .

إن بلاد الإسلام فى هذا العصر ـ وفى العصور القريبة السابقة ـ تحمل كفلين من العذاب : أحدهما من وطأة الغرب المعسكر بقواته الكثيفة من المحيط إلى المحيط ، والآخر من غدر الحكام المشايعين له ، ومن أوضاعهم الملفقة وفسادهم العريض .

احتلال مزدوج ضاقت الأمة به ذرعا ، وأضناها أنها ما تنتهى من صراع أحدهما حتى يأخذ الآخر بخناقها ، والغريب أنه فى الأقطار الإسلامية التى لم يسفر الاحتلال الغربى فيها ، أو التى رابط على حدودها وحبس المسلمين داخلها ـ كجزيرة العرب ـ تضاعف فيها فساد الحكم وازدادت أغلاله ، كأنما كتب على المسلمين البائسين أن يحملوا قيدين حتما ، فإذا لم يكن ثمة قيد أجنبى فإن الولاة الأخيار(!) كفلاء بصنع قيد . . وقيد . . !! .

أما المشاهد التى عرضت لنا فى السجون والمنافى فقد علمتنا مالم نكن نعلم ! وفقهنا على ضوئها معانى آيات كثيرة من الكتاب الكريم .

(١) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٩ أيام النظام الملكى .

كنت أمر بقول الله ممتنا على أهل بدر بالنصر الذى نالوه :

﴿ واذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ . . ﴾ . (١)

فما كنت أدرى إلا أن قوما قووا بعد ضعف وعزوا بعد هوان ! . .

حتى ضمنا جوف الصحراء الموحشة ، ووقعنا فى قبضة ثلة من العبيد ، يتزلفون لسادتهم بإجاعتنا وإرهاقنا وهم آمنون من أن صريخًا يهب لنجدتنا .

وكنت أرسل الطرف فأقرأ فى الوجوه معانى شتى . . إنهم جميعًا مختطفون .

هذا تاجر مختطف من ماله ، فهو لا يدرى عنه شيئًا ، وهذا موظف مختطف من عمله وأوقف مرتبه كذلك ، وكلاهما محزون الفؤاد ، لأنه لايعرف أين زوجته ؟ وأين أولاده ؟

فى المآقى عبرات منعها التجمل أن تسيل فهى جامدة لاينتهى ما يبعثها ولا ينقضى ما يحبسها ، و إذا شغلتهم أنفسهم عن أهليهم ، وانحصروا فى مشاكل حاضرهم عن ماضيهم ، عمرهم شعور المذلة بأنهم قلة ، وأن ثمن حياة الواحد منهم بضعة مليمات ، هى ثمن الرصاصة التى يقتل بها . . ! هكذا قيل لنا فى الطور . . ؟

ورأيت رجالا نبلاء يتخلفون عن صلاة الجماعة ، لأن الخروق كثرت فى الأسمال التى يرتدونها ، وشيوخًا معذبين ، حكى لى أحدهم أن أبناءه وأزواج بناته اعتقلوا جميعاً ، كأن الخطة الموضوعة ألا يكون فى البيت رجل ! .

وتذكرت ليلة من سجن الدرب الأحمر وفى معصمى قيود الحديد ووضعت مع عشرات أمثالى فى سيارة بضاعة ، وكعوب البنادق تدق بين أكتافنا حتى لانحدث جلبة يستيقظ عليها أهل القاهرة النائمون . .

لقد رفضت ليلتئذ أن أقاد صامتا إلى مصير مجهول . . فشققت الصمت السائد بالتكبير العالى ، وأهبت بمن معى أن نزعج النيام بهتافنا . . مهما انهال علينا من

(١) سورة الأنفال : ٢٦ .

ضرب وسب . . لكن القاهرة كانت يسوسها حفنة من الطغاة الفجرة الذين يسرقون الحكم من ذويه ثم يلعبون به كيف يشاءون فخرجت منها وأنا أهمس إلى نفسى :

إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

كنت أكره الاستبداد قبلا كرجل خلقه ربه حرًا ، فلما لعقت مرارة القلة والاستضعاف والاختطاف ، ووجدت زمامى يلعب به السفهاء كما كان صبية مكة يلعبون قديمًا بالحبل الذى ربط فيه بلال بن رباح رسبت مشاعر الحقد فى أعماق قلبى ، وفهمت كيف أن اندحار الأعداء يشفى صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم .

* * *

وفى حلول المصائب يرهف الإحساس ، ويتساءل المرء عن قيمة أعماله ومبلغ سدادها ، وقد عرانا من ذلك شىء كثير . . قلت : هل أخطأنا ؟ وأجلت الطرف فيمن حولى ، فرأيت شبابا مقبلين على العلم والعبادة يحتشدون فى الصلوات ، ويتضرعون فى الدعاء ثم يرددون آمالهم فى الإصلاح الذى طوردوا من أجله ، فإذا بهم معلقو الأفئدة بالكتاب والسُنّة .

إنهم لا ريب يحبون الله ورسوله .

أما خصومهم . . فقد ضجت من آثامهم الأرض والسماء ، إنهم عراة من تعاليم الدين وفضائل الرجولة ، أيديهم ملوثة بالدم الحرام ، وبطونهم متخمة بالطعام الحرام ، وهاهم أولاء قد رموا بنا فى هذا الوادى السحيق لنهلك فيه انقطاعًا وضياعًا . .

أشهد ما علمت أن دعاء المظلوم من أسباب الكون الفعالة ، ومن قواه المسخرة إلا فى هذه الأوقات العصيبة . . طالما دعونا ورجونا ، ووقفنا فى ساحة الله مبتهلين ، فإذا به يملى للظالم فى الاستكثار من الأوزار التى يحملها حتى بهظته الأثقال ، فما زال ينوء تحتها حتى انقصم ظهره فأخلد إلى الأرض .

ونجونا . . وما كدنا . .

ولما كان النسيان طبيعة فى شعبنا يستغلها خصومه فى المكر به ومعاودة إذلاله ، فإنى رأيت من واجبى أن أقض مضاجع البغاة ، وأبعث فى وجوههم بصيحة تحذير ترد كيدهم فى نحورهم ، وتبصر الضحايا الغافلين بعواقب تراخيهم وكسلهم . . فحزمت أمرى على إخراج هذا الكتاب للناس . .

* * *

الدين والاستبداد:

وسترى أن الإسلام والاستبداد ضدان لايلتقيان ، فتعاليم الدين تنتهى بالناس إلى عبادة ربهم وحده ، أما مراسيم الاستبداد فترتد بهم إلى وثنية سياسية عمياء .

وقد راعنى أن أجد كثرة كبرى من الرجال العاملين فى الجبهة الإسلامية مذهولين عن إدراك هذه الحقيقة الخطيرة ، وهم حين يدعون إلى الإسلام ينسون ما أفاده العالم من تجارب فى صراعه للحكام الظلمة الذين أساءوا إليه ، وعلموه أن يحدد علائقه بهم فى دساتير مضبوطة وقوانين محكمة .

حقًا إن الدساتير والقوانين تأتى فى المحل الثانى بعد تهذيب النفس وترقية الضمير ، غير أن مجيئها فى المحل الثانى لايعنى إلغاءها أو الغض من أثرها فإن القيمة الذاتية لهذه الدساتير ، ونبل الفكرة التى أوحت بوضعها ، وخبث المؤامرات التى حيكت لتعطيلها ، وعظم الفائدة التى تتحقق من رعايتها لدين الله ولدنيا الناس معًا . . ذلك كله كان يوجب على العاملين للإسلام أن يحددوا موقفهم بإزائها - وهو موقف يستحيل أن يكون فى مصلحة المستبدين ، الذين يؤسسون أمجادهم على امتهان الجماهير والعبث بمصالحها ، وإذا لم يسمع صوت الدين فى معركة الحرية فمتى يسمع ؟ وإذا لم ينطلق سهمه إلى صدور الطغاة فلمن أعده إذن ؟! .

* * *

لقد تتبعت أقوال طائفة من المتحدثين عن الإسلام فوجدت تصورهم لأسلوبه فى الحكم غامضًا ، وآذانى أشد من ذلك أنهم وقفوا مكتوفى الأيدى أمام الافتيات

المستمر على سلطان الأمة كأن مايحدث تحت سمعهم وبصرهم خارج عن الدائرة التى يختص الدين بالفتوى فيها . .

ولقد فهم أحد الظرفاء هذا الموقف فأرسل إلى لجنة الفتوى هذا السؤال : رجل حلف بالطلاق أن الانتخابات التى حدثت سنة كذا مزورة ، فهل تطلق امرأته ؟ .

ولم تقع لجنة الفتوى فى هذا الشَّرَك . . ولن تقع ولو بقيت المرأة معلقة أبد الدهر .

* * *

إن هذا الموقف مسىء إلى الإسلام إساءة بالغة ، يطمع الدعوات الملحدة أن تمتد حيث انكمش هو ، بل إنه يرفع الثقة بهؤلاء العاملين للدين ، ويعرضهم لأقسى التهم .

وقد قرأنا أخيرًا أن تركيا رأت ـ نزولا على رغبة الأمة ـ أن تعيد حصص الدين إلى المدارس . . فانظر إلى القيود التى وضعتها لهذه الإعادة ، وإلى الزاوية التى تطل منها على الرجال الذين وكلت إليهم هذه المهمة .

يقول الأستاذ محمد فريد وجدى :

« مما يجب أن نلفت النظر إليه فى هذا الشأن أن الأمة التركية الممثلة فى مجلسها النيابى لم تجعل لرجال الدين القوامة المطلقة على ضمائر الناس ، ولا الاستبداد بحق التوجيه الروحى لهم ، كما هى الحالة لدى الأمم الشرقية ، بل جعلت لنفسها القوامة عليهم واشترطت النظر فى البرنامج الذى يضعه رجال الدين للتعليم الدينى ، والكتب التى يؤلفونها لنشر الدين وتعميمه .

واشترطت ماهو أخص من ذلك فى الحد من حرية رجال الدين مبالغة فى المحافظة على حرية الضمائر ، وذلك بأن حظرت أن تفتح مدرسة للتعليم الدينى حيث لاتوجد مدرسة للتعليم العلمانى ، أى التعليم الخالى من التأثير الدينى ، وهى ترمى بذلك إلى درء خطر العدوان على حرية الضمائر .

والذى يلوح لنا أن الأتراك لايخشون من سيادة الروح الإسلامية على جماعتهم ، لأنهم يعرفون ما للإسلام من فضل فى تنوير العقول ، وتقرير الحقوق الطبيعية

للإنسان ، وعنايته بنشر العلوم والفنون ، وحكمته فى قيادة الجماعات فى معترك المزاحمات العالمية ، كل هذا يعرفه الأتراك ويقدرونه حق قدره ، وقد وضعوا فيه كتبًا ، ولكنهم بتقريرهم هذه التحفظات يسيئون الظن بالذين يتولون أمره : فلا يعرفون مدى إدراكهم لروح الإسلام السامية ومبلغ فهمهم لحكمته العالية ، بل يعلمون أن ممن التحفوا شعار الدين أفرادًا لايقدرون تبعة قيادة النفوس قدرها ، فيضطرب سيرهم فى توجيهها ويحيدون بها عن الصراط السوى إلى سبل من الجمود العقلى ، أو الانحلال الخلقى ، وليس هذا مما رمى إليه الأتراك من ثورتهم التى ضربت بها الأمثال ، وسجلت لهم صفحة خاصة فى تاريخ الوطنية الصحيحة » .

ونحن نعرف أن الثوار الأتراك كفروا بالإسلام[1] وخلافته عقيب هزيمتهم فى الحرب العظمى الأولى .

والحق أنهم جمحوا فى تحديد المصدر الذى تسرب منه الخطر على كيانهم فضلوا ضلالا بعيدًا ، ولو عقلوا لكفروا بالرجال الذين أذلوهم أو سكتوا على إذلالهم ، ولقدموا إلى محكمة من صميم الشعب تسمع فيها شهادة عدلين لاترتقى إلى نزاهتهما شبهة أولهما كتاب الله ، والآخر سنة رسوله ، ثم يقول القضاء بعدئذ كلمته ، وهى كلمة يسود لها وجه الخليفة المستبد ومن حوله من مشايخ الإسلام . . .

إننى - فى هذا الكتاب - أنصف الإسلام ، وأدمغ الرجال المفرطين فى حقه وإن انتموا له ، وأريد أن يدرك العاملون فى مختلف الجماعات والهيئات الإسلامية أن خدمتهم لدينهم لن تتم ولن تخرج ولن تسير فى صراط مستقيم إلا إذا نضج فى أذهانهم الفهم السليم لحقوق الإنسان ، واكتمل فى صفوفهم الدفاع العنيف عنها . .

* * *

قبل أن نستفيق من دوار المحنة التى نزلت بنا وقبل أن نلم شتاتنا من حرب الإبادة التى سلطت علينا ، دوى النفير لإجلاء الإنجليز عن ضفاف القناة . . حسنًا . .

---

(١) قال الشيخ الغزالى فى كتابه الدعوة الإسلامية تستقبل قرنها الخامس عشر ص ١٠٤ : « إن أتاتورك الذى وصف الإسلام بأنه « أحكام ونظريات شيخ عربى » كان من أسوأ النماذج . . » ا.هـ .
ومما يذكر أن اتاتورك قد تبرأ من الإسلام وجعل الإجازة الأحد وألغى الجمعة وساهم فى محو الكتابة بالحروف العربية ومنع الحجاب والالتزام بالزى الأوروبى ومحا كل ماله صله بالإسلام شكلا وموضوعا . . « المحقق » .